الإِعجَاز البَياني والتشريعي في آيَاتِ الصِّيـام

تاريخ تسلّم البحث ٢٠٠١/١٠/١٧ تاريخ قبـوله للنشر ٢٠٠٣/٣/١٧

*مصطفى إبراهيم المشنـي**

Abstract

This research deals with the miraculous eloquence of the five verses of fasting, aiming to emphasize the fact that the miraculous of Quran is above the ability of humans, which is not capable of understanding its facts and goals.

This does not mean it is only directed to mental luxury and personal taste, but it owns the ability to make psychological effects, and mental conviction by applying its meaning and rulings willingly, because it suits the innate human nature and satisfies different needs.

This is the supreme goal of Quran as revealed in Sorat Ibrahim (1) "ALR It is a book descended to you to lead the humans from darkness to light".

ملخّص

يتناول هذا البحث الإعجاز البياني لآيات الصيام الخمس من سورة البقرة، ويهدف إلى تأكيد حقيقة أن إعجاز القرآن يعني أنه فوق الطاقة البشرية من حيث قصورها عن درك حقائقه، والإحاطة بغاياته ومراميه، وهذا لا يعني حصره في الترف العقلي والتذوق النفسي، بل إنه يملك القدرة على إحداث التأثيرات النفسية، وإيجاد القناعات العقلية التي تقتضي الأخذ بمعانيه، والامتثال لإحكامه المختلفة عن رضاً وطواعية، على اعتبار مجيئها ملائمة للفطرة وملبية لاحتياجاتها المتنوعة، ضرورة أنها محكومة بالغاية الكلية لنزول القرآن المقررة في قوله تعالى: «الر كتاب انزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد» «إبراهيم ١».

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث لخلق الله أجمعين وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين وبعد، فإن القرآن الكريم كتاب الله الخالد المعجز، الذي هو فوق حدود الزمان والمكان؛ فلا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء؛ وفي ضوء هذه الحقيقة جاء هذا البحث

* كلية الشريعة/ الجامعة الأردنية.

محاولة جادة لترجمة تلك الخصائص بالبحث والتنقيب عن كنوز هذا الكتاب والعلم بمكنوناته، من خلال آيات الصيام التي وقفتني دقة ألفاظها وفصاحتها، وروعة نظمها، وما تنطوي عليه من أحكام وقضايا تنهض بكليات عظمى وغايات كبرى، جمعت بين نوعين من الإعجاز البياني والتشريعي، بغية تحقيق السعادة المنشودة للبشرية ضمن الخطة الكلية للوجود التي تقوم على تفرد الله تعالى والإقرار له بالألوهية والربوبية و العبودية، على أن ثمة أمراً يضاف إلى ما تقدم دفعني للكتابة في هذا الموضوع وهو الوقوف على خصوصية ما جاء في الحديث: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» أخرجه البخاري عن أبي هريرة -ابن حجر/ فتح الباري ١١٨/٤، مما هو فوق ما قرأنا وأبعد مما سمعنا.

وقد اقتضت خطة البحث تقسيمه إلى مقدمة وخمسة مطالب وخاتمة تضمنت المقدمة سبب اختيار الموضوع، وتفرد كل مطلب بآية من آيات الصيام الخمس ثم الخاتمة على النحو التالي:

المطلب الأول: الآية «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام..... لعلك تتقون» ١٨٣.

المطلب الثاني: الآية «أياماً معدودات... إن كنتم تعلمون١٨٤.

المطلب الثالث: الآية «شهر رمضان الذي... ولعلكم تشكرون١٨٥.

المطلب الرابع: الآية «وإذا سألك عبادي عني.... لعلهم يرشدون» ١٨٦.

المطلب الخامس: الآية «أحل لكم ليلة الصيام.... لعلهم يتقون» ١٨٧.

هذا وإنني أود الإشارة هنا إلى أن مظاهر الإعجاز التشريعي لم تأت على قدر مظاهر الإعجاز البياني، لأن البياني انتظم جوانب تربوية ونفسية، هذا فضلاً على أن الفروع الفقهية ليست مرادة ولا مقصودة.

وأسأل الله أن يلهمنا الصواب والسداد، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً وأن يجعل حظي من هذا العمل الأجر والثواب إنه أكرم مسؤول.

﴿ آيات الصيام ﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المطلب الأول: الآيـة الأولـى

قال تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» البقرة «١٨٣».

هذه الآية الأولى من آيات الصيام، جاءت بعد آيتي القصاص والوصية وصدرتا بالفعل ذاته «كتب»، «كتب عليكم... القصاص» ١٧٨، «كتب عليكم... الوصية» ١٨٠، وأوجه ما ذكر في مناسبة هذه الآية لما قبلها ما قاله البقاعي: «إن في القصاص قتل النفس حساً، وفيه حياة الأجساد معنى، وفي الصوم حياة الأرواح بطهارة القلوب...، وهو مدعاة إلى التخلي عن الدنيا والتحلي بأوصاف الملائكة...، وختمها بالمغفرة والرحمة إشارة إلى أن الصائم من أقرب الناس إليهما»[١]، ومع وجاهة تلك المناسبة فالذي يظهر لي والله أعلم وبالنظر في السياق، وموضوعات النداءات المتكررة، ومن وحي كليات القرآن الكريم ومقاصده أن البناء المادي والروحي للحياة هما عمدة النداءات الثلاثة؛ ففي إقامة القصاص تتمثل الحياة بكل معانيها، لتبقى النفوس آمنة مطمئنة للقيام بما أنيط بها من عمارة واستخلاف، وما أجمل قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب...» البقرة ١٧٩، «كلام فصيح لما فيه من الغرابة، وهو أن القصاص قتل وتفويت، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة، لأن المعنى ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل»[٢]، وأما الوصية ففيها ما تتحقق به الحياة مادة، وما يحفظ دوامها بالجود والإحسان وأداء الحقوق، واللحمة القائمة على التواصل والتراحم.

ومناسبة الصيام لهما أن فيه الحياة الموصلة إلى الحقيقة الأبدية المجردة من أسباب المادة ومقتضياتها، بل هي الحياة التي يتردد فيها الإنسان في رحاب الإله الواحد المنَزّه في قيامه عن الحاجة إلى المادة التي لاتقوم مخلوقاته إلا بها «وهو يُطعِمُ ولا يُطْعَمُ» الأنعام ١٤، وأما حصر المناسبة في الانتقال من أشق التكاليف إلى الأشق بعدها فيحتاج إلى توقف، إذ إن التكاليف الشرعية بنيت على عللها المحققة لمقاصدها القائمة على التيسير ورفع الحرج كما سيأتي -.

إن نظرة أولية في الآية الكريمة تكشف دون أدنى ملابسة بأنها اقتضت فرضية سيام وركنيته، بيد أن هذا الحكم المتحصل خلال نظم قرآني ونسق يستحق النظر كل ما أوصل إليه؛ إذ إنه نظم معجز له تميزه وتفوقه، فالحكم من الامر لم يأت سيغة الفعل الصريح «صوموا» مع أن دلالته تفيد ذلك، بل تقدم الامر النداء، الصفة ثم بالفعل الذي لم يسم فاعله «كتب» ثم «الصيام» الذي جاء على بناء ختار، والذي يبدو أن هذا الأمر ما كان يأتي من خلال هذه المقدمات إلا لأنه طوي على أهمية بالغة، وخصوصية تجعله غاية في الاعتبار كيف لا وهو ركن من كان الاسلام وأصل من أصوله، فالنداء للبعيد وحرفه «يا» قد اقتضى التنبيه على رف المخاطب وبعد منزلته وعظيم شأنه، الذي يستدعي منه التنبيه واليقظة لحضور التام، مع استنهاض جميع ملكاته العقلية والوجدانية والحسية، لتلقي أمر ام[٣] يسهم في بناء شريعته ودينه الذي هو وجوده وسبب سعادته في معاشه سعاده، ثم النداء بالصفة المقتضية القرب من الله الذي يتطلب الرضا والتسليم، المبادءة للامتثال والطاعة والمسارعة إلى التطبيق الفوري.

ومما تحسن الإشارة اليه ههنا أننا نجد من استقراء آيات النداء في القرآن أن نداء ما يكون من الله للعباد، وما هو من العباد لله، فما كان من الله لعباده جاء حرف النداء «يا» المقتضي البعد ثابتاً غير محذوف «يا أيها الناس»، «يا أيها الذين وتوا الكتاب»، «ياعبادي»، فإذا أتى النداء من العباد لله جاء من غير حرف نداء ابت «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب» البقرة ١٨٦، وتوجيه ذلك أن حرف النداء لتنبيه في الأصل، والحضور العقلي والقلبي...، والله تعالى منزّه عن التنبيه، إذ لتنبيه يكون لمن شأنه الغيبة والغفلة والإعراض، وهو العبد، وللدلالة على ارتفاع شأن المنادى وأنه منزّه عن مداناة العباد لا سيما وأنه تعالى أخبر بقربه من الداعي خصوصا «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب»، «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» ق ١٦، «ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون»[٤] الواقعة ٨٥، والتعبير بالفعل «كتب» بمعنى فرض والذي لم يسم فاعله تتعلق به أمور:

أولا: اختيار لفظ «كتب» هنا لأن الكتابة في الحقوق والاحكام اللازمة أوثق وأثبت، ثم لتضمن هذا الفعل معنى القدم، وإن كان المنجز متأخراً، فكأنه قدر محتوم، أخذ صفة القدم والثبوت فما يحيط بخيره إلا الله، ويعزز هذا أن هذه الصيغة تأتي في

معرض الحديث عن الثوابت والسنن والقواعد المشتركة بين الشرائع «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس...» المائدة ٤٥ «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي» المجادلة ٢١.

ثانيا: عبر بالمبني للمجهول لتنصب العناية على الفعل، والتنبيه على أهميته وليحسن التناسب مع ما بعده «كما كتب على الذين من قبلكم» ثم لما كانت هذه التكاليف صعبة على النفس شاقة عليها حسن ألا تنسب إليه تعالى؛ قال أبو حيان «حذف الفعل للعلم به... ولأنها مشاق صعبة على المكلف فالأنسب ألا تنسب إلى الله تعالى وإن كان الله تعالى هو الذي كتبها، وحين يكون المكتوب للمكلف فيه راحة واستبشار يبنى الفعل للفاعل كما قال تعالى: «كتب ربكم على نفسه الرحمة» الأنعام ١٥٤ «أولئك كتب في قلوبهم الإيمان» المجادلة ٢٢، وهذا من لطيف البيان»[٥].

ثالثا: قدم الجار والمجرور هنا «عليكم» على نائب الفاعل لإفادة الاختصاص وأن المكلف هو المقصود ابتداء والفعل متعلق به على التعيين، "فالبداءة بذكر المكتوب عليه آكد من ذكر المكتوب لتعلق الكتب بمن يؤدي»[٦]، وضمير الجمع أفاد جميع الأمة من غير استثناء غنيها وفقيرها، ذكرها وأنثاها ما دام مكلفاً مطيقاً، وسلط عليه حرف الجار الذي يلقي بظلاله اللغوية بغية تمكن الفعل منه واستعلائه فيه على معنى تمكن فعل الصيام من النفس بالكلية، العقل بالعلم، والفكر... والقلب بالخشوع والإنابة والتجرد... والجوارح: اليد بالجود والبذل والإحسان... العين بالتلاوة وغض البصر... واللسان بالذكر والكف عن المحرمات... والرجل بالسعي إلى المساجد... والنفس بقوة الإرادة... وبالكلية بالانتصار على الذات في جميع ميادين الحياة.

وأما لفظ «الصيام» فغني عن البيان أن معناه في اللغة الإمساك مطلقاً «إني أنذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً» مريم ٦، وفي الشعر:

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ تحت العَجاج وأخرى تعلكُ اللُّجما

أي ممسكة عن الأكل والحركة، وفي الاصطلاح: الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، غير أن الذي يبعث على النظر والتأمل هو سر اختيار لفظ «الصيام» على زنة فعال!! والذي يظهر أن هذا البناء كان أحرى باختياره ههنا لما يحمله من معاني الشمول المتحققة في الأحكام والحكم والفضائل والقيم، والخيرات العميمة التي تقوم بها الفوائد الدينية والدنيوية، قال ابن القيم: «وهذا

الوزن كثير في المشتملات على الأشياء»[٧]، وأن خير ما يؤكد ذلك الذي جمع ما تقدم كله قوله صلى الله عليه وسلم -وعلى الزنة نفسها-: «الصيام جنة»[٨]، ويتقرر مما تقدم أن نظم هذه الجملة القرآنية، وما ينطوي عليه من لمحات الإعجاز التي تمثلت في أسرار اختيار الألفاظ وما تحمله من معان، وأحكام في السبك والتناسب، جاء تهيئة للنفس البشرية بمختلف أبعادها لتلقي الأمر وقبوله عن طواعية وبكل أريحية، لا سيما وأنه يحمل صفة الركنية، التي تعد أصلا من أصول الإسلام التي لا ينهض إلا بها، بل يستحيل قيام نظام الحياة بتوازن وانتظام بغير هذا الركن، والأركان الأربعة المعروفة -وهي: الشهادتان، الصلاة، الزكاة، الحج- وهذا سر طلب فعلها على وجه الإلزام والتعيين وهي أصول فلسفة الوجود وحكمته، قال تعالى: «وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون» الذريات ٥٦، «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» الإسراء ٤٤، وهكذا هو الأسلوب القرآني المتناغم مع مكنونات النفس البشرية، يأخذ بها رويداً رويداً مع كل استحقاقاتها، وهي تتحلى بصفات الإيمان الذي ينطوي على أعلى القيم وأرقى المثل.

قوله تعالى: «كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون»، تشبيه حمل جملة من القيم والحكم أهمها:

أولا: تأكيد الحكم وتهييج المؤمنين نحو هذه العبادة للإفادة منها، وما تلقيه بظلالها وتفعله في حياتهم لآخرتهم؛ ضرورة أنها عبادة معطاءة لا تنتهي محاسنها ولا ينضب خيرها؛ الأمر الذي اقتضى امتداد فرضيتها وتجدد وجودها، وهذا بدوره يوجد الدافعية نحو الالتزام بها على أكمل وجه، بخاصة حين ترى الأمة أنها ليست بدعاً من بين الأمم في التعبد بها.

ثانيا: تأنيس قلوب المؤمنين وتهيئة نفوسهم للمسارعة في هذه العبادة، من غير تبرم أو استثقال؛ بغية تحقيق أهدافها ووظائفها التي بها يتحقق تميز المؤمنين وتفوقهم على غيرهم ممن كتب عليهم الصيام من أهل الشرائع السابقة، ضمن مفهوم ما خصهم الله تعالى به من حقيقة وسطيتهم وخيريتهم «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» البقرة ١٤٣، «كنتم خير أمة أخرجت للناس» آل عمران ١١٠، وهذا يقتضي بالضرورة أن وجه التشبيه في الآية لا يحتمل الزمان والقدر والوصف الذي اعتراه التبديل والتغيير والزيادة، وإنما هو في الفرضية وأصل الوجوب[٩] وهكذا يسير

القران الكريم مع الأمة بكل لطف ورحمة، آخذاً بيدها لقبول الحكم والتسليم به عن رضا، وهي تربية ربانية وعناية إلهية تميز بها التشريع الإسلامي وهو في طريقه إلى طلب الفعل أو الكف عنه؛ تحقيقاً لمصلحة أو درءاً لمفسدة.

«لعلكم تتقون»: بعد أن بين الله تعالى فيما تقدم ما أفاد الركينة، جاءت هذه الجملة لتبين حكمتها وغايتها، ولست هنا بصدد الخوض في موضوع ارتباط أحكام العبادات بعللها، أو أنها ليست معلله فموضعه ليس هنا وإنما منيتي التأكيد على النظم المتمثل في أسرار التعبير، واللطائف البيانية، وما ينطوي عليه ارتباط الحكم بغايته.

وإن لفظ «لعل» الذي يفيد الترجي في حق المكلفين[١٠]، ويعد تعليلاً لكتابة الصيام يوحي بعلو الحكمة وبعد الغاية التي تصعب الإحاطة بجميع مفرداتها وجوانبها، على معنى أنَّ مع ما في الصيام من معان عظيمة، من امتناع وحرمان وقوة إرادة، وعبادة... وقيام و انتصار على الذات، لعلكم بكل هذا تدركون تلك الغاية أو رجاء أن تدركوها، وهو معنى ينطوي على مواصلة الجد والاجتهاد للوصول إلى تلك الحكمة، وفي هذا بعث لكوامن النفس وإيقاظ لكل أبعادها، للقيام بتلك العبادة على أكمل وجه، ولعل هذا ما حدا بالغزالي أن يقسِّم الصيام إلى درجات ثلاث صوم العموم، وصوم الخصوص، وخصوص الخصوص[١١]، وفي ضوء ما تقدم فان مجيء الغاية الكلية للصيام وهي التقوى بصيغة المضارع «تتقون» كي تتسع لكل حِكم الصيام وأهدافه متجددة معطاءة، لا يتوقف مفرداتها عن تثبيت قواعد الإيمان وحقائق العقيدة، وإيجاد ملكة الرقابة الفاعلة في النفس والسلوك وجوانب الحياة المختلفة.

وأما مجيء الفعل بصيغة الجمع «تتقون» فلأن الخطاب علم لجميع المكلفين، ويقتضي بالضرورة أن تدخل الأمة مدرسة الصيام لتخرج كلها محققة تلك الغاية، بدءا بالفرد وانتهاء بالمجتمع والأمة، وقد جاء في القرآن الكريم ما يجسد هذه المعاني ويؤكدها من مثل قوله تعالى: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وملائكته والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» البقرة ١٧٧.

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن التقوى جماع كل خير، فعن أبي

ذر رضي الله عنه: قلت يا رسول الله أوصني، قال: «أوصيك بتقوى الله فإنها زين لأمرك كله»[١٢]، وفي رواية أبي سعيد الخدري جاء رجل إلى رسول الله صلى الله علية وسلم فقال: يا رسول الله أوصني، قال: «عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير»[١٣]، حقاً إنها جماع كل خير لأنها الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل.

لكن السؤال الذي ينهض هنا ما مفعول «يتقون»؟ وما سر حذفه؟ لقد جاء في كتب التفسير أن مفعول «يتقون» المعاصي والمنهيات -أي لعلكم تتقون المعاصي...، أو ما إلى ذلك من المأكول والمنكوح[١٤]، بيد أن هذا الذي ذكر وإن كان صحيحاً إلا أنه يشكل جزءاً من المقصود الكلي للحكم، وبالتالي فإن التعميم أولى لأنه يقتضي عظمة الغاية وفخامتها وشمول فوائدها، وبهذا يفسر حذف المفعول الذي هو سمة بلاغية انتهجها القرآن الكريم، لأنه أبلغ من الذكر «لأن الذكر يقتصر على وجه والحذف يذهب من الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم، لما قد تضمنه من التفخيم»[١٥]، ولقد أحسن ابن عطية حين قال: «تتقون على العموم لأن الصيام كما قال صلى الله عليه وسلم: «جُنّة ووِجاء»[١٦]، ويلوح لي هنا قضية دقيقة تدخل ضمن الحكمة الإلهية والغاية الكلية من الصيام، بل هي رأس الغايات، إنها التوحيد المقتضى إفراد الله تعالى في الذات والصفات والأفعال، وتنزيهه عن كل نقض واحتياج، وقد ضلت فيها الأمم التي كتب عيها الصيام قبلنا، فما سَمَوا بهذه العبادة إلى الحكمة البالغة والغاية العظمى، لقد نسبوا لله الولد والشريك والصاحبة، وبالتالي جعلوا علة الاحتياج تقوم فيه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، والمعنى: لعلكم تتقون الله فتعرفوه فتوحدوه وتنزهوه عن كل ما من شأنه أن يقوم بغيره من أشباه خلقه، ثم إن هذا التوحيد الذي يعني «ليس كمثله شيء» يتراءى في عبادة الصيام التي تؤكد رد الإنسان إلى بشريته التي لا تنهض ولا تستمر إلا بمقوماتها المادية، المتمثلة في الحاجة الماسة إلى الطعام والشراب والنكاح، وهذه الخصائص تستحيل أن تكون من صفات الألوهية أو لوازمها؛ إذ إن الامتناع عن الطعام والشراب يعني توقف الحياة، والإمساك عن المباشرة يعني توقف النسل والنوع، وعلى هذا فإن الصيام هو العبادة المميزة بين ما يتصف به البشر وبين ما ينزه عنه الله الواحد الأحد، ولو تدبرنا القرآن الكريم لوجدنا في آياته ما يؤكد هذه الحقيقة، لقد نفى القرآن الكريم الألوهية والربوبية عن عيسى بن مريم و أمه بإثباته لهما صفة البشرية من الأكل والشراب؛ ضرورة ألاّ

يُتَّخَذوا آلهة من دون الله فقال: «ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون» المائدة ٧٥، ومعلوم أن الطعام والشراب من لوازم البشر ومما يتنزه الله عنه، وقوله تعالى: «وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين» الأنبياء ٨، وهذه الآية تقرير لما يتصف به الأنبياء من لوازم البشرية من طعام وشراب وفناء، وتحقيقاً لما تقدم جاء قوله تعالى: «وهو يُطعِم ولايُطعَم» الأنعام ١٤، وإذا كان الفناء من لوازم الإنسان وخصائصه، جاءت عبادة الصيام إيقاظاً لوعية بكنه بشريته، وكينونته الآدمية[١٧]، وإذا وقف الإنسان على كنه نفسه وحقيقة جوهره، كان أدعى إلى خشوعه وتواضعه ولعل هذه الغاية هي أدق ما تفسر به تلك الخصوصية الواردة في الحديث القديس: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به»[١٨]، من بين سائر العبادات التي هي مقصودة له أيضاً وليس لغيره جل في علاه.

وفي هدي ما تقدم كله يتعذر حصر الغاية الكلية من الصيام في الامتناع عما يسهم في قيام البناء المادي للإنسان وبقائه، وفيما يلحق الجسم من مشقة ومعاناة؛ لأن هذا ليس مقصود الشارع الحكيم، الذي أقام مادة التكليف على اليسر ورفع الحرج، وبالتالي فليس المقصود المشقة بذاتها ولمضاعفتها؛ لأن العبادة هنا تنقلب إلى ما يشبه العقوبة[١٩]، وعطفاً عما سبق فإن الحرمان من الطعام والشراب ليس ذلك المقصود الأول من هذه الفريضة ولا يرقى إلى الحكمة الكلية منها بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[٢٠]، وعلى هذا فإن الغاية الكلية للصيام لا يمكن حصرها في اعتبار الصيام مدرسة الإرادة والقوة أيضا-لأنه يمكن تحقيق ذلك بغير الصيام ولا في تلك النزعة الاجتماعية المتمثلة في شعور الأغنياء بالمحرومين و المعدومين والفقراء وحسب؛ ضرورة أن حكم الصيام يتناول جميع المكلفين كما في قوله تعالى: «كتب عليكم» فقراء وأغنياء ضعفاء وأقوياء.

وإذن فالغاية الإلهية والحكمة الكلية من الصيام هي أعم من ذلك كله وأشمل، ويدخل فيها ما ذكر دخولاً أولياً، ثم لتذهب النفس في تصورها كل مذهب حفاظاً على ما تحمله من وجوه التعظيم والتفخيم.

المطلب الثاني: الآية الثانية

«أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدةٌ من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدْية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون» البقرة ١٨٤.

هذه الآية الثانية من آيات الصيام جاءت لتفصح عن كمال النظم وحسن التناسب الذي هو من أوجه الإعجاز؛ فبعد طلب الآية الأولى من المكلف فعل الأمر على وجه الفرضية جاءت هذه لتجيب عما يجول في خاطره من معرفة حيثيات الحكم المطلوب، وما تتشوف نفسه إليه من العلم بأوقاته ومتعلقاته للقيام به على أتم وجه، وفي هذا التفصيل ما فيه من التربية والتعليم، وبعث الراحة والطمأنينة النفسية بغية الإقبال والإمتثال.

وعلى هذا فإن الراجح في إعراب «أياماً»[٢١]، النصب على المفعولية لفعل محذوف دل عليه ما قبله، والمعنى: صوموا أياماً معدودات، والجمهور على أن المراد هي أيام رمضان[٢٢]، ويلحظ ورودها نكرة لإفادة التقليل ترغيباً للمكلف بالحكم، وإغراءً لحملة على قبوله، وأفاد التنوين تفخيماً وتعظيماً، أي على قلة عددها إلا أنها عظيمة بما تحمله من الخير والبركات والأجر العظيم والنفع العميم، ومن الأدلة ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعَدَ الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً»[٢٣]، ولفظ «معدودات» تتعلق به أمور: الإعراب وصيغة البناء وسر اختياره، أما أولها: الإعراب، فهو وصف لما قبله تابع له نكرة- ومؤكد لمضمون معناه، ثانياً: الموصوف والوصف كلاهما جمع قلة أفاد معنى التيسير والتقليل على المكلفين توطيناً للنفس على إطاقته، ولذلك لم يأتِ على صيغة معدودة[٢٤]، لأنها تفيد الكثرة كما في قوله تعالى: «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة» البقرة ٨٠، بينما في سورة آل عمران «ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلى أياما معدودات» آل عمران ٢٢.

ثالثا: وأما سر اختيار لفظ «معدودات» هاهنا فيتجه إلى ما يلي:

أولاً: أن العدّ والعدد فيهما إشارة إلى الدقة في الحساب والإحصاء بداية ونهاية، ممثلا في قوله صلى الله عليه وسلم «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غُبِّي

عليكم فأكملوا شعبان ثلاثين»[٢٨]، وما أجمل عبارة الطبري هنا «فهي التي تُعدّ مبالغها وساعات أوقاتها، ويعني معدودات محصيات»[٢٩].

ثانياً: جاء التعبير بالمعدود إشارة إلى كمال العناية وتمامها؛ بغية المبادرة والمسارعة والحرص على الفوز بما فيها لأنها قليلة الدوام سريعة المضي والفوات، يؤكد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم عن أنس بن مالك قال: «دخل رمضان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا الشهر قد حضركم وفيه ليلة خير من ألف شهر من حرمها حرم الخير كله ولا يحرم خيرها إلا محروم»[٣٠].

ثالثاً: إن العدّ يحمل إشارة الى استقلالية كل يوم بدءاً ونهاية متضمناً العناية والرعاية بها، والحرص على أداء واجبات الصيام والنهوض بفوائده، على أن ثمة إعجازاً نفسياً يحمله هذا اللفظ، وهو مخاطبته للنفس في ضوء العلم بقدرتها وطاقتها على التحمل، وبما ترغب فيه وتطمئن إليه بما وُعدَت به من رفع المشقة وإسقاط الإصر، فجاء التعبير ليتناسب وبعث الإرادة النفسية ومقدرتها على التمكن من الفعل.

قوله: «فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر».

هذا تفصيل آخر يتصل بحيثيات الحكم فبعد بيان ما له صلة به من حيث القدر والزمان شرع في بيان ما يتصل بالمحكوم عليه -المكلف- من حيث أهليته لتطبيق الحكم ابتداءً واستثناءً، أعني في حالتي العزيمة والرخصة، وقد جاء هذا التفصيل على أفضل نسق، فبعد الإشارة إلى حكم القادرين عطَف بحكم أصحاب الأعذار، وقدم الجار والمجرور "منكم" على الخبر لإفادة الاختصاص، إذ المكلف هو المقصود بالحكم لا غير.

والملفت للنظر مجيء المعطوف «أو على سفر» مغايراً لخبر كان المعطوف عليه في صيغته، والسر في ذلك -والله أعلم بما ينزل- أن المرض لا يكون باختيار الإنسان، ولا بمحض إرادته وتقديره، فهو خارج عن ذلك كله بل يُداهم الإنسان بصرف النظر عن أحواله وأزمانه، وأما السفر فإنه يتحقق بتوجه إرادة الإنسان نحوه ورغبته فيه، والتحكم فيه زماناً ومكاناً، وهذا توجيه سر التعبير بـ «على» الذي يفيد التمكن والاستعلاء، وما جمال الاستعارة التصريحية التبعية فيه -على- إلا دليل آكدُ على ذلك المعنى، حيث شبَّه تلبس المسافر بالسفر باستعلاء الراكب واستيلائه على

المركوب، بجامع القدرة على التصرف بالكيفية المرادة[٣١]، على أن مجيء لفظ «سفر» نكرة أفاد مطلق السفر، فكل ما يصدق عليه السفر في عرف الشرع يصح أن يكون علّة لإباحة الفطر، وكذلك المرض -أي- من أي مرض كان، وعلى هذا أدخل الفقهاء الحامل والمرضع وغيرهما في المريض، كما هو معروف في الفروع[٣٢]، وحسن العطف هنا لأن كلاً منهما فيه مشقة وعنت فهما نظيران في موجب الإفطار.

وثمة سؤال يطرح نفسه هنا وهو لماذا عبَّر عن المرض بالفعل الماضي «كان» وما سر تقديمه على السفر؟ والجواب أن النص هنا يتضمن معنى الشرط والجزاء، وإذا قدر فيه معنى الشرط أضحى المراد بقوله «كان» الاستقبال لا الماضي كما تقول من أتاني أتيته[٣٣]، وأما سر التقديم على فمن باب تقديم المقدر المكتوب قسراً على المكتسب اختياراً فذلك أولى.

قوله «فعدة من أيام أخر» لا يخفى هنا «الفاء» هي الفصيحة التي طوت مقدراً لا يتحقق المعنى إلا به والتقدير «فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فأفطر» فعليه صوم عدة أيام المرض أو السفر، قال ابن العربي: «وهذا من لطيف الفصاحة، لأن تقديره؛ فأفطر كما قال تعالى: «فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية» البقرة ١٩٦ تقديره فحلق ففدية[٣٤]، والتعبير «بعدة» على زنةِ «فعلة» للدلالة على القلة، بمعنى محدودة، ويفاد من ذلك أن المطلوب وجوب صيام أيامٍ محددة، عدد الأيام التي رخص بالفطر فيها؛ إذ العدد لا يكون إلا على مقدار مماثل مقابل.

وتنكير لفظ «أيام» فيه دلالة واضحة على العموم، وعدم تحديدها بأيام مخصوصة، وفي هذا من التوسعة والرحمة ما فيه، فقد جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يكون عليَّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضي إلا في شعبان»[٣٥]، ومجيء «أخر» على هذا البناء، ليس «أخرى» وهي نعت «لأيام» لدفع توهم أن تكون نعتاً لعدة على أن جمع ما لا يعقل يجري في مثل هذا مجرى الواحد المؤنث، فيجوز وصفه بوصف الواحدة المؤنثة[٣٦].

وفي ظلال هذه القوالب اللفظية التي أوعت معاني تترجم إعجازاً بيانياً وتشريعياً انطوى على حكم باهرة نبهت إلى جميل صنع الله تعالى بعباده المؤمنين رحمةً بهم، وتلطفاً في الوصول إلى خيرهم وصلاحهم في دينهم ودنياهم، وما أجمل

ما دوّنه الشيخ زادة في حاشيته مما يحسن نقله ههنا -على طوله- تتميماً للفائدة، قال القفال رحمه الله تعالى: «انظروا إلى عجيب ما نبّه الله إليه، من سعة فضله ورحمته في هذا التكليف؛ فإنه تعالى بيّن في أول آية أن لهذه الأمة في هذا التكليف أسوة بالأمم المتقدمة، والغرض منه ما ذكرناه من أن الأمر الشاق إذا عم خف، ثم بين ثانياً وجه الحكمة في إيجاب الصوم وهو أنه سبب لحصول التقوى ثم بيّن ثالثاً أنه مختص بأيام معدودات، فلو جعله في جميع الدهر أو في أكثر الأوقات لحصلت المشقة العظيمة، ثم بين رابعاً انه خصه من الأوقات بالشهر الذي أنزل فيه القرآن، ليكون أشرف الشهور بهذه الفضيلة ثم بين خامساً إزالة المشقة، فأباح تأخره إن شق على أحد من المسافرين أو المرضى أن يصيروا إلى زمن الرفاهية والسكون، فراعى سبحانه وتعالى في إيجاب الصوم هذه الوجوه من الرحمة، فله الحمد على نعمه التي لا تحصى حمداً دائماً كثيراً»[٣٧].

قوله تعالى: «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» عطف عما سبق، فبعد أن ذكر حكم الصنف الأول وهو من لا يطيق الصيام بسبب سفر أو مرض، عطف بالثاني وهو حكم من يطيقه بمشقة وكان صحيحاً مقيماً وعليه الفدية، ولست بصدد التفصيلات الجزئية، والاختلافات في الفروع الفقهية التي هي «بيضة العقر» كما يقول ابن العربي[٣٨]، بقدر ما أود توضيحه وبيان ما تحمله الألفاظ من دلالات تنطق ببديع النظم ولطيف البيان من شواهد الإعجاز و يعنينا ابتداء لفظ «يطيقونه»[٣٩]، من حيث المادة والصيغة، فمادة الفعل «طاق» تشير إلى معنيين التقليد والتكليف[٤٠]، وكلاهما يفيد المقدرة على الفعل، فمن قُلِّدَ شيئاً كلِّف حمله، و من كلف أمرا حُمِّلَ فعله، على أن لفظ الطاقة يوحي بالقدرة على المشقة، قال الراغب «والطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء»، وقوله تعالى: «ولا تحمِّلنا مالا طاقة لنا به» البقرة ٢٨٦، أي يصعب علينا مزاولته، وليس معناه مالا قدرة لنا به لأنه تعالى قد يحمل الإنسان ما يصعب عليه[٤١]، ويؤيد هذا ما جاء في لسان العرب: «قال الليث»:

كل امرئ مجاهدٌ بطوقه كالثور يحمي جلدَه بِروْقه

والروْق: القرن[٤٢]، وأما صيغة الفعل فجاءت بالمضارع لتفيد التجدد والحدوث، وعليه فان جمالية هذه المفردة القرآنية تتراءى في أن الفعل بمادته وصيغته جاء

ليناسب حال المكلف ما تجدد الحال في هذا المقام، فمن كان صحيحاً يطيق الصيام فصام فلا بأس، ومن كان صحيحاً يشق عليه أفطر وفدى إلى أن رفع هذا الحكم ونسخ بقوله تعالى: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه»، ويؤكد هذا ما ثبت في الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال: (لما نزلت «وعلى الذين يطيقونه...» كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت التي بعدها فنسختها)[٤٣]، وقال الطبري بعد أن عرض الآراء في قوله: «وعلى الذين يطيقونه... مسكين»: «وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال: «وعلى الذين يطيقونهة مسكين»، منسوخ بقوله تعالى ذكره «فمن شهد منكم الشهر فليصمه»[٤٤].

ونلحظ ههنا توجيهاً تربوياً يتناسب مع صفة التشريع وهي التدرج في الأحكام التي تعني تربية الأمة عبر أطوار وأدوار، وهذا يعني مدخلاً حسناً لحمل النفوس على تقبل الحكم وأخذه بقوة، ومجيء كلمة «فدية» نكرة على زنة فِعْلة، لإفادة القلة، والمعنى من لم يطق كلفة الصيام أطاق البدل ليسره وضآلته وقلة كلفته، وهو طعام مسكين فطور وسحور. ومن البيان مجيء كلمة «طعام» وليس «إطعام» بغية التلطف بالمستحق، ورفقاً بحاله عن النيل منه بالمنّة والأذيّة، فلفظ «إطعام» يتصرف بالتسليط على المفعول مباشرة فعدل عنه، تناغماً مع قوله تعالى: «قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى» البقرة ٢٣٦، وهذا أدب حقيق بالقرآن الذي أحكمت آياته من لدن حكيم خبير.

«فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون» تتضمن هذه الجملة القرآنية معنى عظيماً وقيمة عليا وما أعظم ما يتضمنه القرآن تعد تمهيدا حسنا ومدخلا لطيفا لحمل المكلف على الإقبال على الحكم لأفضليته وخيريته وهو الصيام للصحيح المقيم رافع الرخصة وهذا سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب[٤٥]، كأنه يريد أن يقول، ومع كل ما في التطوع والزيادة على الفدية المقررة من أجر وثواب وتقرب إلى الله عوضاً عن الصيام وجبراً للفطر، يبقى الصيام -وأن تصوموا لايفضله شيء، وليس ثمة قربة تدني العبد من ربه مثل الصيام، مع ما فيه من مشقة وجهد وتضحية وحرمان...، لأنه الترقي في درجات العبودية لله، وما سر التعبير بلفْظ الفعل «وأن تصوموا» إلا تفسير لتلك الغاية بالممارسة الفعلية للصيام والقيام بواجباته وسننه وآدابه...، ثم إن مجيء كلمة «خير» هنا نكره، وطي ذكر الفدية -أي- خير لكم من «الفدية» ما كان إلا تجسيداً لتلك المعاني المغيبة والفوائد المخبوءة فيه

والتي تذهب فيها النفس كل مذهب، وخير ما يؤكد هذا ما جاء على لسان المعصوم صلى الله عليه وسلم عن أبي أُمامة قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «مرني بأمر آخذه عنك قال عليك بالصوم فإنه لا مثل له» وفي رواية عنه «أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ العمل أفضل قال عليك بالصوم فانه لا عدل له»[٤٦]، ولمتأمل أن يقول: ختمت الآية بالشرطية التي حذف جوابها لدلالة ما قبله عليه، أي إن كنتم تعلمون فالصيام خير لكم، لكن ما معنى أن تأتي «إن» ههنا مع أنها تفيد التقليل أو التشكيك، والظاهر -والله اعلم- أنه يفهم منها ومع الفعل المضارع المذيّل به النص نفي علمهم وإحاطتهم بخير الصيام وفوائده الدينية والدنيوية، وفيه تهييج لهم بالتنقيب المتجدد والبحث المتواصل عن تلك الفوائد المغيبة في هذه العبادة.

المطلب الثالث: الآية الثالثة

«شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبِّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون» ١٨٥.

لا ريب هذه الآية جاءت استئنافاً بيانياً[٤٧]، مبيناً لما أبهم من عدة الايام المكتوبة «أياماً معدودات» والتي تتشوق النفس لمعرفتها على التحديد والتعيين، وهذا البيان تضمن جملة من الحقائق والثوابت، نطقت بتلك الصلة بين الصوم وفاعليته في تدبير شؤون الحياة وبين قواعد الوجود الحقيقي وأصوله -الهدى، البيان، الفرقان- وفي ظل هذا تنهض جملة من الحقائق تتمثل فيما يلي:

الحقيقة الأولى: التصريح بلفظ «شهر» مضافاً اليه «رمضان» ينبئ عن دفع توهم الاقتصار على أيام معدودات من الشهر، وليفيد استيعاب الصيام ايام الشهر جميعها ثلاثين أو تسعة وعشرين كما جاء في الحديث الشريف[٤٨]، متتالية مضبوطة المبدأ و النهاية متَّحدة لجميع المسلمين[٤٩]، وفي هذه توجيه للمسلمين جميعاً في وقت واحد مدرسة واحدة بعمل واحد وفق منهج واحد.

الحقيقة الثانية: ما سر تعيين رمضان على وجه الخصوص شهراً للصيام؟ وقد أجيب عن هذا التساؤل باشتماله على فضائل يقوم عليها مدار الدين والدنيا[٥٠]،

وقد فصل الرازي هذه الفضيلة الجامعة بقوله: «إن الله تعالى خصه بأعظم آيات الربوبية وهو أنه أنزل فيه القرآن، فلا يبعد أيضاً تخصصه بنوع عظيم من آيات العبودية وهو الصوم»[٥١]، وهكذا نرى الرازي يجعل تلازماً واضحاً بين فضيلة نزول القرآن فيه وبين فضيلته لوجوب الصيام فيه، ويقول في موضع آخر: "فإنه تعالى لما بين كون رمضان مختصاً بهذه الفضيلة العظيمة التي لا يشاركه سائر الشهور فيها بيَّن أن اختصاصه بتلك الفضيلة يناسب اختصاصه بهذه العبادة»[٥٢]، ويشير صاحب المنار إلى هذه الخصوصية بما أفاض الله على عباده من هداية تمثلت في أُنزل القرآن، الرسالة العامة للأنام الدائمة إلى آخر الزمان[٥٣].

الحقيقة الثالثة: التعبير بالموصول.

وأما التعبير بالموصول «الذي انزل فيه القرآن» وبانضمام صلته له لأنهما بمثابة التعبير الواحد ليشعر بما في حيزها من عظيم ما حمله هذا الشهر من خصائص وفضائل وهدايات وبينات؛ يصلح معها تفرده وتميزه على سائر الشهور، لاسيما وأنّ أهمّ حدث كان فيه هو نزول القرآن الذي يعد بحق دستور البشرية وسبيل سعادتها الأوحد في معاشها ومعادها، وهذا ما يؤكده الله تعالى في آياتٍ أخرى «حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلةٍ مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمرا حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم» الدخان ٦. إنا أنزلناه في ليلة القدر وما ادراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر...» القدر ١-٥ ،ويقرر صاحب المنار أن هذا الشهر هو أفضل ظرف وأنسب هيئة مذكرة لشكر الله تعالى على إنزال القرآن للاهتداء بما فيه يقول: «ومن الشكر أن تكون هدايتنا بالقرآن في مثل وقت نزوله أكمل، ومنها أن يكون الصيام موصلاً إلى حقيقة التقوى، فإذا لم ننتفع بالصيام في أخلاقنا وأعمالنا ولم نهتدِ بالقرآن في عامة أحوالنا فأين الانتفاع بالنعمة وأين الشكر عليها؟»[٥٤]، وفي ضوء هذه الحقيقة فإن صلة الموصول «الذي أنزل...» أحرى أن تكون وصفاً للشهر لا خبراً له؛ للتنبيه على أن الموصوف مختص بمضمون هذه الصلة ولأن مثل هذا الحدث العظيم من شأنه ألاّ يخفى على أحد فيكون الكلام تذكيراً بهذا الفضل العظيم والإنعام العميم[٥٥].

وجاء التعبير بالفعل الذي لم يسمَّ فاعله «أنزل» لينصبَّ الأمر على الفعل وللعلم بفاعله جل وعز، والتشويق لمعرفة عظمته والتنبيه على قدره، على أن تقديم الجار

والمجرور (أنزل فيه) على نائب الفاعل «القرآن» والتعبير بالظرفية «في» لإفادة اختصاص النزول بهذا الشهر وأنه ظرفٌ لإنزاله[٥٦].

الحقيقة الرابعة: انتظامه أهم حدث وأعظم أمر وهو إنزال القرآن هدى للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان فيه جملة واحدة ليلة القدر إلى الهدى والفرقان.

أولاً: والمعنى أنه الشهر الذي أنزل القرآن فيه جملة واحدة ليلة القدر أي السماء الدنيا، وهذه دلالة الفعل «أنزل» كما هو معلوم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن القرآن أنزل في رمضان ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام»[٥٧]، والقرآن هو كتاب الأمة الخالد الذي أخرجها من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى نور الهداية والعلم، وهو الذي أنشأها من العدم، وبدل خوفها أمناً، ومكن لها في الأرض ووهبها مقوماتها التي صارت بها أمة، وهي بغير هذه المقومات ليست أمّة وليس لها مكان في الأرض ولا ذكر في السماء، فلا أقل من شكر الله على نعمة القرآن بالاستجابة إليه تعالى في هذا الشهر بالصوم والإنابة وهو الذي أنزل فيه القرآن[٥٨].

ثانياً: ما معنى ذكر قوله تعالى بينات من الهدى والفرقان بعد قوله (هدىً للناس) والمتحصل من كتب التفسير أن المراد بـ«الهدى» للناس القواعد العامة والأصول الكلية للهدايات العقدية والشرعية[٥٩]، وهذه الكليات هي خارج حدود الزمان والمكان فلديها القدرة على استيعاب مستجدات الحياة ومستحدثاتها، ومجيء كلمة «هدىً» مصدراً تعبير واضح عن تلك الخصيصة؛ ضرورة أن المصدر اسم مجرد من الزمان والنسبة، و«الهدى» حال لازمة له ثابتة، فهو هدىً في نفسه وهادٍ، نظيره (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) الإسراء ١٠٥ وتنكير لفظ «هدىً» تأكيد لفخامة حاله المعجزة المشتملة على تعظيم ما تضمنه من عموم الهدايات ولفظ «للناس» يحمل تعظيماً لأولئك الناس الذين انتظمهم سلك تلك الهدايات وهم المتقون الممدوحون في قوله تعالى (هدىً للمتقين) البقرة ٢ إذن المتقون هم الناس المكرمون، و غيرهم ممن لم يهتدوا بالقرآن ليسوا بناس، لأنهم بإعراضهم عن هدايات القرآن قذفوا بأنفسهم خارج دائرة الإنسانية إلى عالم عبر عنه القرآن بقوله «إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون» الأنفال ٥٥، على انه يمكن إطلاق لفظ الناس على طوائف الناس الذين يرتقون بعبادة الصيام التي تعد بحق هيئة مذكرة للقوى الفكرية

والروحية بالتدبر والتأمل فيرتفعون بها الى رتبة الإيمان ومعراج الإحسان.

«وبينات من الهدى والفرقان»، «والبينات» معطوف على (هدى للناس) وهو حال، و«من الهدى» وصف لها أي هاديات فارقات، والعطف هنا يقتضى المغايرة التي تستحق النظر «فالبينات» من حيث الصيغة والدلالة المعنوية أدق من لفظ «هدى» وأخص في مفهومة العام، إذ إن البينات هي تلك الشواهد التي تنطوي على أصول براهين قضاياها، وتحمل في طبيعتها عناصر أحقيتها بالتسليم والقبول، وهذا يتحقق باستنهاض القدرات العقلية والملكات المختلفة للوصول إلى تلك الغايات التي يحملها النص القرآني المعجز، يحيلها إلى حركة تتمثل في الواقع والسلوك، وما من شك في أن الصيام بما يحمله من معاني التجرد من المادة وعوالقها، والارتقاء بالنفس عن الهوى، كل ذلك يؤول إلى التفتح العقلي والإشراق النفسي، فيكون وسيلة فعالة لتمكين العقل والنفس من اجتلاء تلك البينات، وتمثلها باعتبارها تنهض بالحقائق الكبرى والأصول العامة، وعلى رأسها الإيمان بالله تعالى وهو ما يفيض عنها من القيم العليا، والمثل الخالدة، ومن ثم التضحية والجهاد لتأصيل هذه القيم التي بها يتحقق الكمال الإنساني.

على أن هذه الحقائق بما تستند إليه من أصول وقواعد تحمل أحقيتها تقضي بأن تكون معياراً يفرق به بين الحق والباطل عدلاً وإنصافا[٦٠]، وعلى هذا فإن البيِّنات من الهدية تستلزم تفكيراً عميقاً للوقوف عليها والاقتناع بها وتمثلها، ولا يتحقق هذا إلا في ظل ارتقاء الإنسان فوق ماديته وصفاء ذهنه وإشراقات عقله، والصيام مدرسة هذا كله ومنهج تطبيقه.

وتقريراً لهذه الحقيقة فقد جاء الهدي النبوي القولي والعملي تأكيداً لها في أجلى صوره وأبينها في رمضان بعامة وفي العشر الأواخر بخاصة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»[٦١].

بقي أن نسأل ما سر مجيء الفاصلة على هذه الشاكلة؟ والحق أن هناك معاني تفضل مراعاة الفاصلة[٦٢]، ضرورة أن كل زيادة في المبنى زيادة في المعنى، فهي ليست بينات من الهدى وحسب، بل لها خصائص ومميزات فوق ذلك؛ بما تحمله من حقائق وأصول تصلح أن تكون ثوابت ومعايير تفرق بين الحق والباطل

للرقي في معارج الغاية الكلية والقضية العظمى ألا وهي «التقوى» وهكذا تعانق هذه الغاية تلك الغايات التي ينطوي عليها هذا الركن العظيم تحقيقاً لقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم» الأنفال ٢٩.

قوله تعالى: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه»، و«شهد» هنا معناه حضر حساً أو علماً، ففي التنزيل «وذلك يوم مشهود» هود ١٠٣ أي محضور[٦٣]، وفي قول عنترة:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

فالمراد هنا من حضر الشهر وليس من شاهد الهلال لأن هناك فرقاً بين شهد وشاهد. وهذا شاهد لكفاية حضور نية الصيام للشهر كله، ومن أسرار النظم -وما أكثرها- اتصال الضمير في قوله «فليصمه» الذي هو في محل نصب على الظرفية، أي: فليصم فيه، لكنه استغنى عنه ووصل الفعل إلى المجرور للاتساع[٦٤]، والمراد ليشمل الصيام الشهر كله كاملاً، فلو قال: فليصم فيه لتوهم عدم صيام الشهر كله، وحصل المطلوب بصيام بعضه قوله: «ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر».

والمتعلق بهذه الجملة القرآنية هنا هو سر إعادة الرخصة، فقد مر الحديث على مفرداتها ووجوه النظم فيها في الآية الثانية، وإعادة الرخصة ههنا لدفع توهم نسخ ما جاء في الآية الاولى من الرخصة، بتجديد وجوب صيام الشهر على التعيين فيوجب الصيام على المريض والمسافر، فأعيد ذلك في الآية الناسخة تصريحاً لبقاء تلك الرخصة، ونسخت رخصة الإطعام مع القدرة والحضور والصحة لاغير، وهذا اذا كانت هذه الآية ناسخة للتي قبلها، فاذا ما كانت على اعتبار نزولهما في وقت واحد، كان هذا الوجه في إعادة هذا الحكم هو هذا الموضع الجدير بقوله «ومن كان مريضاً» لأنه جاء بعد تعيين الصيام، وما تقدم في الآية الاولى فهو تعجيل بالإعلام بالرخصة رفقاً بالملكفين[٦٥].

«يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»، وهكذا جاءت هذه القاعدة الكلية مقصد الشريعة ثابتة مستقرة إذ إنها بمثابة النتيجة للمقدمة فهي مستأنفة بيانياً، كأن السؤال لماذا رخص بالفطر للمريض والمسافر؟ لأنه يريد اليسر ورفع الحرج

ولايريد العسر، وهذه القاعدة مقصد الشريعة بل هي صفة الشريعة لها ما تقوم عليه من الأدلة النقلية -الكتاب والسنة- والعقلية ما لا يتسع له المقام هنا، فيمكن الوقوف عليه في كتب أصول الفقه والتشريع، مستعيضين عن ذلك بما تتضمنه الجملة من لطائف وأسرار.... ومنها:

«يريد» جاء التعبير بالمضارع ليفيد التجدد والحدوث فصفة الرحمة والسماحة مطلقة لازمة دائمة، وأظهر بدل الإضمار «ولا يريد» ليوضح تغاير متعلق الفعلين، فمتعلق «يريد» الأول اليسر، ومتعلق الثاني نفي العسر، وعنون بالألوهية لتربية المهابة وللوقوف على عليَّة الحكم، وأما سر التعبير بالإرادة فلأن تحمّل التكاليف الشرعية عزيمة أو رخصة يحتاج إلى قوة وعزيمة وإرادة متجهة نحو الفعل وأخذاً للمكلف به طلباً أو كفاً، والملحوظ أن الآية تحمل ايجاباً وسلباً أو إثباتاً ونفياً وحسن الابتداء بالايجاب أو الإثبات -يريد الله بكم اليسر- لأنه المقصود ابتداء تعليلاً لحكم الرخصة ثم العطف بالنفي تأكيداً للإثبات، وأن «العسر» ليس مقصود -الشارع البتة-[٦٦]، وقد تكون الجملة تعليلاً لكل ما تقدم من قوله «كتب عليكم الصيام...- يريد الله بكم اليسر» وهنا فإن المعنى القائم في الصيام هو اليسر لقطع احتمال إرادة العسر بالكلية، وإن كان ظاهره المشقة فإن في طياته من المصالح والمنافع الدينية والدنيوية ما يؤكد هذه الحقيقة، فالله أوجبه في مدة قليلة من السنة، ثم ذلك القليل ما أوجبه على المريض ولا على المسافر، وكل ذلك رعاية لمعنى اليسر-والسهولة»[٦٧].

«ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون»

هذه الجمل القرآنية الثلاث، هي ثلاثة أوامر في ثلاث علل تأخذ الألباب بأسرار تعابيرها وجمال أسلوبها وحسن نظمها، وتفصيل هذا مايلي:

أولا: «ولتكملوا العدة»: علة أمر بمراعاة العدة -عدة الصيام- «ولتكبروا الله»: علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر، «ولعلكم تشكرون»: علة الرخصة والتيسير.

ثانيا: عدّى هنا بحرف الاستعلاء -على- وذلك لتضمين معنى الحمد والثناء، كأنه قيل: لتكبروا الله حامدين على ما هداكم وتمام تكبير الله وتعظيمه أن يكون بمجموع القول والاعتقاد والعمل)»[٦٨]، وهذا على قول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ثالثا: التناسب بين الأوامر وعللها، وهو «من اللف والنشر المرتب الذي لا يهتدي إلى تبيينه إلا النقّاب المحدث من علماء البيان»(٦٩).

رابعاً: الخاتمة أو التذييل، وفيها أمور، أولها: ختمت بالشكر لأنه المناسب للمقام، فهو لفظ عام يصدق على اللسان والقلب والفعل، وهذا يتناغم مع ما في الصيام من آثار رحمة الله في تحقيق السعادات الدنيوية والأخروية، وجاء الفعل بصيغة المضارع لإفادة تواصل الشكر وتجدده، والعناية به على أكمل وجه لأنه متعلق بمن لا تحصى آلاؤه ونعمه.

ثانيها: ختمت هذه الآية بترجي الشكر وما قبلها ختم بترجي التقوى وضابطه غالباً ما سبق بترخيص وتيسير ختم بشكر، وما سبق بتكاليف شاقة ختم بالتقوى وهذا من محاسن علم البيان(٧٠).

ثالثها: التغاير في الأسلوب، فعلل الأوامر قبل هذه الخاتمة باللام «ولتكملوا، ولتكبروا» وعلل فيها بـ«لعل» والسر في ذلك أن المطلوب هذا -الشكر- بمنزلة المتحقق لقوة دواعيه وتضافر أسبابه وموجباته، من حصول الهداية والرحمة والبركات ونعمة التيسير ورفع الحرج(٧١).

المطلب الرابع: الآية الرابعة

«وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون» البقرة ١٨٦.

تبدو هذه الآية -للوهلة الأولى- خارجة في موضوعها عن السياق الذي وردت فيه، بيد أن المتأمل في ألفاظها ودلالاتها يجد أنها ما ندت عن الموضوع ولا نأت عن السياق، ذلك بأن الصيام هو العبادة التي يتجرد الإنسان فيها عما يقوم به بنيانه المادي في وجوده وامتداده، ليتجه بكليته إلى الله تعالى فتستشرف نفسه إلى معرفة ما تتصف به الذات العلية وتتفرد من الألوهية والربوبية والعبودية.

والدعاء في حقيقتة عبادة تقوم في جوهرها على الانقطاع عما سوى الله،

والتوجه إليه بالكلية، والتخلي عن الأغيار بطلب تحقيق المراد في ظل الاعتقاد بتوحيد الألوهية والربوبية والعبودية، وهذه الكليات هي أسس العقيدة والعبادة وهذا ما يدور عليه مفهوم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدعاء هو العبادة»[٧٢]، وفي قوله «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»[٧٣]، وإذا تقرر هذا فإن أفضل ظرف في ذاته للدعاء، الصيام والقيام وليلة القدر- وهو الهيئة المذكرة بالتجرد الخالص والتوجه على وجهه الأمثل، إذ النفس تبلغ من الشفافية والصفاء ما تكون أقرب منزلة من الله تعالى، وإذا كانت النفس قد ارتقت واقتربت كان الله أقرب وأسرع، بل ترفع الوساطة ولو كانت أكرم الخلق محمداً صلى الله عليه وسلم ولذا جاء الجواب «فإني قريب» ثم مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حين يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم»[٧٤] وبهذا فقد جاءت هذه الآية لتفصح عن كل هذه المعاني متممة لما سبق، جاء في محاسن التأويل «هذه الآية من تمام الآية الأولى-لأنه تعالى- لما حث على تكبيره وشكره على ما قيضه لهم من تمام الصيام بين أن الذي يذكرونه ويشكرونه قريب منهم مجيب لهم إذا دعوه»[٧٥].

ومجيء هذه الآية بين آيات الصيام يحمل خصوصية تتمثل في فضيلة الوقت الذي هو موسم الدعاء، وفضيلة الصائم الذي هو مرجو الإجابة مستجاب الدعوة، وتحقيقاً لما تقدم جاء النظم القرآني الكريم المعجز بمفرداته التي تنطوي على أسرار التعبير تحيلها إلى واقع وسلوك!!

لقد افتتحت هذه الآية بالسؤال «وإذا سألك» الذي يعني بمادته الاهتمام والعناية بغية بناء المفاهيم وغرس الاتجاهات والقيم، وهذا ديدن الفصحاء البلغاء، قال علقمة:

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بأدواء النساء طبيب

وهذا الاصطلاح الشائع للزمخشري في كشافه وغيره من المفسرين «فإن قلت»[٧٦] ومن عجيب النظم هنا صيغة الشرطية بـ«إذا» وتلوين الخطاب، فأما «إذا» فلإفادة التحقق والوقوع، وهو المناسب في هذا المقام نظيرة قوله تعالى: (إذا وقعت الواقعة) الواقعة١، وأما تلوين الخطاب فهو الالتفات من خطاب المؤمنين إلى مخاطبته صلى الله عليه وسلم وقصد به رفع مقام الرسول صلى الله عليه وسلم والسمو بمنزلته وشرفه[٧٧]، وهذا التلوين في الخطاب وما عنى جاء تقريراً حسناً ومدخلاً

لطيفاً بين يدي نفي الوساطة المتمثل برفع «قل» المثبت في غير هذا الموضع للاحتفاظ بعلو درجته صلى الله عليه وسلم، والمحافظة على شرفه وعظيم قدره.

واختير لفظ «عبادي» لما يحمله من قدسية تميزه ومن وُصف به بأشرف المقامات وأرفعها، وأدناها منزلة من الله تعالى، يدل على ذلك من كتاب الله تعالى كثير منه قوله: (فأوحى إلى عبده ما أوحى) النجم١٠، (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) الحجر٤٢، (فبشر عباد) الزمر١٧، فكيف إذا أضيف هذا الوصف إلى الضمير الدال على لفظ الجلالة فإنه يعني ارتقاء المضاف صعداً في معارج العظمة المستمدة من عظمة المضاف إليه.

والحق أن هؤلاء العباد قوم مخصوصون ارتقوا فوق ذواتهم فليسوا من جملة من سألوا عن الجبال واليتامى والمحيض والأنفال..... وإنما سألوا عن الله[٧٨]، على أن هذه الإضافة إلى الضمير الدال عليه تعالى تشعرنا بذلك الحنو والعطف وتلك الرحمة والودادة.. وكلها معان متدفقة من هذا اللفظ تتناسب وتتناغم مع مقام القرب «فإني قريب» فكأن الألفاظ جاءت مصفوفة في عقد متلائم متناسق لا يند منه شيء ولا يشذ فسبحان منزل الكتاب ليتدبره أولوا الألباب.

والالتفات في كلمة «عني» من الغائب إلى المتكلم لمزيد من العناية وقوة الانتباه، والسؤال هنا عن الذات من حيث القرب والبعد كما يقول الرازي[٧٩] لانتفاء المسافة والتمكن وبهذا الجواب «فإني قريب» ينتفي التحيز والجهة، نظيرة «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» ق ١٦، وقد عبر بالإسمية هنا «فإني قريب» للدلالة على الثبوت والاستقرار، وأكد ب «إن» لأن الخبر غريب وهو «قريب» على معنى أن يكون الله قريباً مع كونهم لا يرونه، وقوله «أجيب» خبر بعد خبر، لأن غاية الخبر الأول توطئة لقبوله وتسهيلاً للإقرار به[٨٠] وبهذا التنوع العجيب في الخبرين المعطوفين ذكر حالين:

الأول: حال القرب، وعبر عنه بالأسمية لثبوت تلك الصفة واستقرارها في جميع الأحوال والأحايين.

الثاني: حال الإجابة وعبر عنه بالفعل ليتوافق وأحوال الداعين وتجددها، وفي هذا إيحاء بدعوة العبد إلى كثرة الدعاء والإلحاح في الطلب؛ ضرورة تجدد الإجابة ما تجدد الطلب والسؤال، وهذا ما يحبه الله تعالى من عبده مصداقاً لقوله عليه

السلام: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج»،[٨١] بل إنه تعالى يحب العبد الملحاح، قال صلى عليه وسلم: «إن الله ليحب الملحين في الدعاء»، «أفضل الدعاء الإلحاح على الله عز وجل والتضرع إليه.»[٨٢]

ومن لطيف البيان هنا «الإيجاز» الذي يعني رفع الوساطة، فلم يقل تعالى: فقل إنني قريب، كالذي ذكر في الأسئلة التي صدرت أجوبتها بفعل الأمر «قل» مثل «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال...» الأنفال ١، وسر ذلك أن الله تولى الإجابة بنفسه العلية عن سؤالهم تنبيهاً على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء.[٨٣]

ومن موجبات الانتباه مما يقتضيه النظم الكريم، العدول في الجواب عن اللفظ والصيغة، فلم يقل: أجيب عن أسئلتهم أو سؤالاتهم، وإنما قال: «دعوة الداع إذا دعان» ثم عاد إلى صيغة الجمع «فليستجيبوا» والسر في ذلك والله أعلم أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال فسؤال الأدنى الأعلى يفيد الدعاء، كما هو معلوم في علم المعاني، فجاء الكلام على أحسن أحواله، وأما صيغة الإفراد فسرُّها أن الإجابة تكون وفق حال الداعي من الله قرباً وكثرة في الدعاء وإلحاحاً في الطلب ويقينا في الإجابة، وهذا ما تتفاوت الأنفس فيه، وعليه فلا بد من تفاوت الإجابات والدرجات، وهذا أدعى لتحقيق العدالة الإلهية التي لا تظلم مثقال ذرة، فإن كانت الإجابة جماعية فقد يفوت ما تقدم من معان، ثم إن الله يريد من كل فرد أن يتوجه بالدعاء إليه تعالى إقراراً منه بالوحدانية في التوجه والربوبية في الطلب، هذا فضلاً على أن هناك أدعية فردية تخص الإنسان نفسه لأنه المسؤول عن عمله ابتداء، بل هو مرهون بعمله كما جاء في محكم التنزيل «كل امرئ بما كسب رهين» الطور ٢١، «كل نفس بما كسبت رهينة» المدثر ٣٨.

ومما تحسن الإشارة إليه أنه لا تلازم بين الدعاء وبين الإجابة، فإجابة الله دعاء الداع تفضل منه ومنّة، ذلك لأن الخبر هنا لا يقع في حيز الشرط فيفيد التلازم، فالشرط هنا ربط الجواب بالسؤال وليس ربطاً للدعاء بالإجابة، على معنى أنه لم يقل: إن دعوني أجبتهم[٨٤] وعلى هذا فإنه رفع «الفاء» من الخبر «أجيب» التي تفيد الترتيب والتعقيب، ليؤكد أن الأجابة قد تتأخر فتدخر، وقد تكون فورية، بينما صدر بها الفعل «فليستجيبوا لي» لاقتضائه فورية الامتثال والطاعة من العبد لربه.

وأما عوده إلى صيغة الجمع «فليستجيبوا.. وليؤمنوا» فهذا ما يقتضيه

التكليف، فالعباد كلهم مكلفون بالقيام بأصول الإيمان وتبعاته وأصول الشرع وفروعه، وهذا حق الله عليهم لأنه ربهم خالقهم، وباعتبارهم مربوبين له مخلوقين لعبادته وطاعته، «وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون» الذاريات ٥٦.

ومن حسن البيان هاهنا قوله «فليؤمنوا بي» مع أنهم عباده المؤمنون، ثم تقديم «فليستجيبوا لي» على قوله «وليؤمنوا بي» مع أن الاستجابة فرع الإيمان؟ والإجابة عن الأول «فليؤمنوا»: أن هذا إنشاء في معنى الخبر، وتأويله: فليواظبوا على إيمانهم وليثبتوا على ما هم عليه، وأما تقديمه الاستجابة: فلأن الامتثال والطاعة، والعبادات وزيادتها كل ذلك يزيد الإيمان ويثبته، وإذا ما تحقق هذا فإنه عين الهداية والرشاد وإصابة الحق والخير.

وأخيراً فقد جاءت الفاصلة القرآنية متناغمة مع سياقها متناسبة وموضوعها حيث كانت تعليلاً لما تقدمها أو نتيجة لها، وكذلك «تتقون وتشكرون» مع «يرشدون» وقعت مرتبة ترتيبا منطقياً منظماً، فالأصل التقوى ولا يشكر إلا تقي وما يجحد إلا شقي، ولا يتحقق الرشاد إلا بالتقوى ومحصول ذلك إصابة الحق.

المطلب الخامس: الآية الخامسة

«أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون» ١٨٧.

هذه خاتمة آيات الصيام آخر لبنة في بناء هذا الركن العظيم، فبعد أن بينت الآيات الأولى فرضية الصيام وأحكامه وفق أحوال المكلفين، في ضوء خصائص الشريعة ومقاصدها الكلية، جاءت هذه تتميماً لما سبق، وتصحيحاً لمفهوم خطأ ودفعاً لتوهم حرمة الطعام والمباشرة بعد نومهم، وما كان من اختيان أنفسهم كما بدر من عمر بن الخطاب وكعب ابن مالك وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين[٨٥]، وتمضي هذه الآية تفصح عن جملة من الأحكام ذات العلاقة بالصيام إلى أن ختمت بالذي ختمت به أول آية كما سيأتي بيانه، ولست بصدد التفصيل في الفروع الفقهية بقدر ما أود

التوقف للحديث عن أسرار التعبير القرآني المعجز، وما ينطق به من فصاحة وحسن بيان، موضحاً أثر ذلك في الأخذ بالأحكام و تمثلها واقعاً وسلوكاً.

إن جملة «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم» لامست مكنونات النفوس التي طالما استشرفت سماع هذه الألفاظ التي رفعت ذلك الثقل عن نفوس المؤمنين، وأزالت تلك المعاناة المرهقة، وها هو ذا الفعل «أحل» جاء يتهادى مختاراً على الفعل الصريح «باشروا» لاقتضاء الأول الرد على ما استحكم في النفوس من التحريم، وقد ورد نظير هذا في القرآن ولكن على النقيض من هذا الحكم وهو «الحل»، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً...» النساء ١٩ فلم يقل: لا ترثوا؛ ضرورة أن الخطاب جاء لنفي ما كانوا يعتقدونه من الحل ويفعلون.

وصيغة البناء للمجهول «أحل» للعلم بالفاعل أولاً، وليتناسب مع النسق العام للآيات «كتب عليكم» ثانياً، ثم لتنصب العناية على فعل «أحل» بغية الإجابة عما يدور في النفس، وما يلبي حاجاتها بأقصر الطرق وأوجزها، وهذا ضرب من البلاغة لا يخفى. «ليلة الصيام» وفي إضافة الصيام إلى الظرف «ليلة» يتحقق الاتساع في الزمن والفسحة فيه، وهذا ما تبتهج له النفوس؛ إذ إن ضيق الزمان أعني بعد النوم قبل السحور كان من بواعث الحرج والاختيان.

واختيار لفظ «الرفث» في هذا المقام على غيره يحتاج إلى نظر، جاء في التفاسير: وإيثاره ههنا على ما كنى به في جميع القرآن من التغشية والمباشرة واللمس والدخول ونحوها استقباحاً لما وجد منهم قبل الإباحة، ولذا سماه اختياناً فيما بعد(٨٦).

والذي يظهر في اختيار هذه الكلمة التي لا يسدّ مسدها غيرها ما يلي:

أولا: أن هذه الكلمة أنسب في هذا المقام لحال الصائم وشفافية نفسه وروحه، وأبعد له من ذكر لفظ يدل بهيئته المذكرة والمصورة لما ينبغي للصائم أن يتنزه عنه كلفظ الجماع، وهذا أدب قرآني لا يعدله أدب.

ثانيا: أن الرفث يصدق على الكلام والقول، قال ابن عطية: الرفث ما فحش من القول، ومنه قول الشاعر:

ورُبَّ أسراب حجيج كظَّم عن اللّغا ورفث التكلُّم(٨٧)

وعلى هذا يدخل فيه كلام مقدمات الجماع، وهو داخل فيما ينبغي أن ينزه عنه الصائم من باب سد الذرائع، ويصدق الرفث على الجماع لكنه كنى به استحسانا لدلالات تقتضي العفة والأدب، وهذا ديدن القرآن عموما فضلاً عن أن يكون المقام مقام صيام، وبهذا فقد حمل اللفظ سلوكيات وآداباً تتناسب مع شخصية المؤمن وإنسانيته التي يفترق بها عن غيره من المخلوقات.

«هن لباسكم وأنتم لباسٌ لهن»: هذه الجملة الكريمة من الآية، استئناف كالبيان لسبب الإحلال[٨٨] أي كان الحل لصعوبة التحفظ عن ذلك، وفيها استعارة تحمل جملة من القيم والمبادئ أهمها:

الكرامة الإنسانية: فاللباس يحفظ للإنسان كرامته الآدمية، ويحفظه ضمن أشواق روحية لا يشعر بها غيره من المخلوقات، فهو يستر عورته، ويجعله في هيئة جميلة تدل على أنه في أحسن تقويم «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً» الأعراف ٢٦.

العفة والترفع عن المحرمات -أو الإحصان وتمكنه من النفس بالقناعة بالنعمة الإلهية- وهذه خير حافظ بعد تقوى الله تعالى كما جاء في الحديث «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، و إن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»[٨٩].

وهناك معنى عظيم يتبدى من الاستعارة هو تلك الخصوصية بين الزوجين في السكن والراحة والمحبة والتلازم وغيرها من مقتضيات الزواج، فكل من الزوجين مختص بزوجه لا يتعداه لغيره، كاللباس تماماً لا يجد الإنسان نفسه ولا أريحيته إلا فيه وبه، في ضوء اختياره ورغبته، حتى يغدو خصوصية من خصوصياته ليس لأحد أن يعتدي عليه أو يأخذه.

وفي ضوء ما تقدم من معانٍ فإن هذه الآية جمعت ثلاثة أنواع من البيان؛ الأول: الطباق المعنوي بقوله: «أحل لكم» فإنه يقتضي تحريماً سابقاً، فكأنه: أحل لكم ما حرم عليكم. والثاني: الكناية ب «الرفث» عن الجماع ودواعيه.

ثالثاً: الاستعارة البديعة، بقوله: «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن»[٩٠].

قوله تعالى: «علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم».

ومحصلة هذه الآية تصوير ما كانت تكنه تلك النفوس، وخيانة النفس هنا تحمل على التمثيل؛ لتكليفها ما لم تكلف به مما يوحي بالمشقة، وهو تمثيل لمغالطتها في الترخص بفعل ما ترونه محرماً عليكم، فتقدمون تارة وتحجمون أخرى كمن يحاول خيانة، وعلى هذا فمعنى «فالآن باشروهن»: لقد اتضح الحكم فباشروهن ولا تختانوا أنفسكم، وليس معنى «الآن» إشارة إلى تشريع المباشرة حينئذ[٩١]، وعلى هذا فان تفسير «فتاب عليكم» هو: خفف عنكم بالإباحة والرخصة، نظيره «علم إن لن تحصوه فتاب عليكم» المزمل ٢٠[٩٢].

«وابتغوا ما كتب الله لكم»، والملحوظ هنا أن هذه الجملة جاءت غاية لما تقدم من الإباحة؛ مراعاة للفطرة الإنسانية بما حوت من دوافع غريزية ومتعة بالنساء وطلب الذرية، وتوظيف ذلك في ضوء الخطة الكلية للكون إناطة بالمقصد الأسمى من الوجود الإنساني -الاستخلاف- في ظل العبودية الحقة.

وتحسن الإشارة ههنا الى أن الأمر بالمباشرة لا يتعارض مع قوله تعالى: «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد» لاختلاف المقتضى في كل منهما مع تقدير الزمان والمكان، فمقتضى النهي «ولا تباشروهن» ترك الأعمال المباحة بالكلية وسائر ما يقطع الاعتكاف ويخرجه عن بابه باستثناء الحاجة الضرورية[٩٣]، ضرورة أن سنة الاعتكاف في المسجد وبخاصة في العشر الأواخر تعني التجرد الكامل لله والتي تنسلخ فيها النفس عن كل شيء، ويخلص القلب فيه من كل شاغل سواءٌ ذلك فترة الإمساك وفترة الإفطار[٩٤].

قوله تعالى: «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» وأول ما يلحظ ههنا تأخير هذا الحكم بعد إحلال المباشرة، وسر ذلك والله أعلم - إشفاقاً على حالهم ورحمة بهم، للمسارعة في رفع ما كان يشق عليهم فيختانون أنفسهم فقدم الأولى والأهم على المهم.

ويتعلق بقوله «الخيط الأبيض والخيط الأسود» موضوعان أحدهما بلاغي والثاني سبب النزول.

أما الأول: فهذه الجملة تحمل صورة بلاغية، تباينت فيها أنظار المفسرين بين التشبيه والاستعارة، حتى أن ابن عطية جمع بينهما بقوله: «والخيط» استعارة وتشبيه»[٩٥]، ففصل الزمخشري القول فيها على أنها تشبيه وليست استعارة فقال: «فإن قلت أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه؟ قلت قوله «من الفجر» أخرجه من باب الاستعارة قلت: لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام ولو لم يذكر «من الفجر» لم يعلم أن الخيطين مستعاران فزيد «من الفجر» فكان تشبيهاً بليغاً وخرج من أن يكون استعارة»[٩٦]، وتوجيه ذلك أن شرط الاستعارة حذف أحد طرفي التشبيه تحقيقاً وتقديراً، وهنا كل واحد من طرفي التشبيه مذكور، فكل واحد من الخيطين مشبه به وقد ذكر صريحاً، والمشبه في أحد التشبيهين وهو الفجر مذكور صريحاً، وفي التشبيه الآخر وهو تشبيه الليل بالخيط الأسود مذكور دلالة، فلما وجد طرفا التشبيه حينئذ كان تشبيهاً ولم يكن استعارة لفقد الشرط[٩٧]، وهذه القاعدة في التفريق بين الاستعارة والتشبيه سار عليها الزمخشري وطبقها في غير موضع من تفسيره فعند تفسير قوله تعالى: «صم بكم عمي» البقرة ١٨ قال: «قلت: هل يسمى ما في الآية استعارة؟ قلت: مختلف فيه والمحققون على تسميته تشبيهاً بليغاً يصبح المشبه عين المشبه به لا استعارة لأن المستعار له -المشبه- أحد طرفي التشبيه مذكور وهم المنافقون، والاستعارة تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ويجعل الكلام خلواً عنه»[٩٨].

وأما الموضوع الثاني سبب النزول واختصاره بالسؤال التالي: أيمكن أن تكون الآية نزلت بسبب فعل عدي بن حاتم بجعله عقالين أسود وأبيض تحت وسادته، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم له: «إنك لعريض القفا»[٩٩]؟!.

والحق أنه لا يمكن أن يكون هذا سبب النزول؛ لأن هذه الآية نزلت في السنة الثانية للهجرة وإسلام عدي كان في التاسعة أو العاشرة للهجرة، والراجح أن يكون عدي حين أسلم سأل النبي عما يجب عليه من الصلاة والصيام، فأرشده إلى بداية الصيام بالخيط الأبيض ونهايته بدخول الخيط الأسود، ففهم الكلام على حقيقته فجاء بعقالين أو خيطين كما ورد في البخاري، وقد أوَّل ابن حجر مقالة عدي بقوله: «لما سمعت الآية... وقدمت وتعلمت الشرائع عمدت...» ويعضد هذا ما رواه الإمام احمد بلفظ «علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة والصيام فقال: صلِّ كذا وصم كذا فإذا غابت الشمس فكل حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود قال فأخذت خيطين»[١٠٠]، وعلى هذا فإنه

من المحتمل أنه فعل هذا بعد سؤاله عن الصيام؛ إذ لا يعقل صنيعه هذا -وهو الصحابي- لو أنه شهد نزول الآية أو سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم تامة، ومما يؤيد هذا ما قاله الرازي: فأما ما حكي عن عدي بن حاتم فبعيد؛ لأنه يبعد أن يخفى على مثله هذه الاستعارة مع قوله تعالى: «من الفجر»[١٠١].

قوله: «تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون»

هذه خاتمة آيات الصيام وهي جملة مستأنفة استهلت بـ «تلك» اسم الإشارة للبعيد للدلالة على سمو هذه الأحكام أوامر ونواه[١٠٢]، وعلو قدرها وعظمتها وبعد أثرها في عقيدة الإنسان وسلوكه، لا سيما وأنها مضافة إلى الله تعالى، وإنَّ هذه المعاني السامية تتجلى في هذا النظم البديع وما يتضمنه من أسرار ولطائف يتنزه بها أن يكون من عند بشر.

فلفظ «حدود» التي هي فواصل تنتهي عندها الأشياء وبها تتميز عن غيرها، وهي توحي بالالتزام بها والتوقف عندها؛ لأنها غاية نهاية الإنسان وطريقه إليها بل هي منتهى سعادته في دنياه وآخرته.

والتعبير بالألوهية «الله» هنا لتربية المهابة في النفس؛ بغية الامتثال والمسارعة إلى الطاعة مع الإشعار بعظمتها، والنهي عن قربها «فلا تقربوها» أبلغ من النهي عن تعدِّيها فما كان النهي عن فعله كان النهي عن قربانه أبلغ[١٠٣]، والأصل ألا يقترب الإنسان من الحد، خشية الوقوع فيه ومجاوزته والخروج منه، كما جاء في الحديث الشريف: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات... ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وان لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه»[١٠٤].

واختير هنا «تقربوها» على «تعتدوها» لما تقدم أولا ثم لأن لفظ «تعتدوها» غالباً ما يستعمل في المعدودات المحددات ودليلة مجيء قوله تعالى: «ومن يعص الله ورسوله و يتعد حدوده...» النساء ١٤، بعد تحديد أنصبة ومقادير الورثة ووصاياهم، ويشهد له أيضا قوله: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة... وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه» الطلاق ١[١٠٥].

وختمت آخر آيات الصيام برجاء التقوى مثلما ختم به أولها، إذ الموضوع متعلق بالأحكام المنوطة بمقاصدها، المحققة لحكمها وغاياتها، وأجلُّ غاية وأرفعها التقوى، جماع أمر الإنسان كله، لاعدل لها، وهي: أن يطاع الله فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر.

ومما يحسن ختم الكلام به أن هذه الآية «أحل لكم... لعلهم يتقون» تضمنت قضية كبرى وحقيقة عظمى تعد فوق مقاصد الصيام المعهودة، ألا وهي إفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية القائمة بالنفس من غير ما حاجة في قيامه وبقائه إلى ما يحتاجه المخلوق في وجوده وبقائه، فالمخلوق لا يتحقق وجوده إلا بالطعام والشراب «وكلوا واشربوا» كما أن وجوده واستمرار نوعه لا يتحققان إلا بالنكاح «أحل لكم ليلة الصيام الرفث... فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم»، فالصيام إذن -الذي هو الإمساك عن السبب المادي في الوجود والبقاء- دال بحاله وهيئته على واجب الوجود المنزه بذاته المستغني عن علل الاحتياج وما تقوم به المخلوقات والحوادث.

الخاتمة

وبعد فهذه جولة في ربوع آيات الصيام، وقفت خلالها على ألفاظها وعباراتها وأسرار نظمها التي يُفسِّر غناها بالأحكام والحكم، وثراؤها بالفرائد والفوائد... بأسلوب متفرد لامس الفطرة البشرية، وسبر أغوار النفس الإنسانية فخاطبها في ضوء ما يصلح شأنها في معاشها ومعادها.

وما من ريب أن هذه الآيات تحمل الدليل القاطع على أن هذا القرآن ليس من عند بشر، وليس لهم القدرة على الإتيان بمثله -ألفاظاً ونظماً وأسلوباً وأحكاماً وقيماً وسلوكاً- كيف لا وهو من عند الله المتصف بالكمال، والحق أن الإعجاز في آيات الصيام أطلعنا على ما تشتمل عليه مدرسة الصيام من أصول عقدية وأحكام فقهية، ومفاهيم تربوية واجتماعية عرفت الإنسان بخالقه وصفاته من خلال وقوفه الإنسان - على كنه نفسه وإدراك حقيقة وجوده ثم بصرته بما يكفل ثباته على طريق الهدى والرشاد.

وبنظرة متدبرة في الآيات الكريمات الخمس أجد أنها شكلت موضوعاً جاء على أحسن صور التناسب في المفردات والتجانس في الأطراف والتناسق في الحلقات؛

فالآية الأولى: ذكرت الحكم وصفته وحكمته العليا، والآية الثانية: أوضحت عدته وزمانه، وقدرة المحكوم عليه في كيفية الامتثال للحكم وتطبيقه، والآية الثالثة: بينت الحدث الأعظم الذي وقع في زمانه وهو نزول القرآن، والتأكيد على ما فيه من وجوه الهدايات مما يستوجب الحمد والشكر، والآية الرابعة: تناولت موضوع الضراعة إليه تعالى والتوجه له طلباً للهداية والرشاد، وتحقق الغايات والمقاصد في ظرف زماني مخصوص هيئ للإجابة وتحقق المراد، وفي الآية الخامسة: أحكام تتمات، وحافظات ضابطات لكل ما يشتمل عليه الصيام من عميم الخيرات والسعادات، وبهذا يكون قد تحقق الجمع بين الحكم ومقاصده على أحسن الصور وأتمها وأوجزها، ولعمري هذا هو الإعجاز في أبهى صوره وأبينها. على أن ثمة لطائف أخرى ونكات تضمنتها هذه الآيات لم أكن غفلاً عنها فيما تقدم من مثل إيجاد ملكة التقوى، ورياضة النفس وتربيتها المقتضية الانتصار على الذات، بترك الشهوات المحرمة، ثم رفع المشقة بقلة التكاليف على المقيم ورفعها عن أصحاب الأعذار، ومن اللف والنشر في قوله: «ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون» ثم التشبيهات العجيبة في الخيطين الأبيض والأسود وغيرها من اللطائف التي تأكد أن القرآن لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

وفي الختام فإنه لا يسعنا إلا الإقرار بأن هذه الآيات حفظت من مظاهر الإعجاز ما يعجز القلم عن تدوينه تحقيقاً لقوله تعالى «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً» الكهف ١٠٩ ثم بياناً لقصور الإنسان أمام عظمته تعالى وفيض آلائه ونعمه..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الهوامش

١) البقاعي نظم الدرر ج٣/٤٠.

٢) الزمخشري الكشاف ج ١/٣٣٣.

٣) يكثر نداء القرآن الكريم بحرف البعد «يا» في القضايا الهامة والخطيرة مثل: مطلع سورة النساء «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة...» وهو تذكير بالبداية والنشأة، ومطلع سورة الحج «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم» وهو تذكير بالنهاية والبعث.

٤) ينظر: الشاطبي - الموافقات ج٢/١٠٣.

٥) أبو حيان - البحر المحيط ج ١٧٧/٢.

٦) السمين الحلبي - الدر المصون ج ٢٦٦/٢.

٧) ابن القيم بدائع الفوائد ج ١٦/٢، د. السامرائي - معاني الأبنية ١٢٧.

٨) الحديث: أخرجه البخاري عن أبي هريرة -كتاب الصوم- باب فضل الصوم ابن حجر - فتح الباري ج ١٠٣/٤.

٩) ينظر: ابن العربي - أحكام القرآن ج ٧٤/١، أبو السعود - تفسير ج ١٩٨/١.

١٠) قال الكسائي والأخفش: «لعل» تفيد التعليل،ومذهب سيبويه والمحققين أنها للترجي وهو ترج العباد -المرادي- الجنى الدانى ٥٨٠، قال الطبري: تستعمل بمعنى «كي» جامع البيان ج٣٦٤/١.

١١) ينظر: الغزالي - إحياء علوم الدين ج٢٣٥/١.

١٢) الإمام أحمد - المسند ج١٨١/٥.

١٣) ابن حجر الهيثمي مجمع الزوائد ج٣٠١/١٠.

١٤) ينظر: الطبري - جامع البيان ج١١٣/٣، ابن العربي أحكام القرآن ج٧٥/١ الزمخشري الكشاف ج٣٣٤/١، الرازي مفاتيح الغيب ج١١٥/٢.

١٥) الرماني -النكت في إعجاز القرآن- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ١٠٦.

١٦) ابن عطية - المحرر الوجيز ج١٠٢/٢ ويشير ابن عطية في قوله: «جنة و وجاء» إلى حديثين صحيحين الأول «الصيام جنة» عن أبي هريرة/ كتاب الصوم باب فضل الصوم/ ابن حجر/ فتح الباري ج١٠٣/٤، والثاني عن ابن مسعود «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء «كتاب النكاح/ باب من استطاع الباءة فليتزوج/ ابن حجر/ الفتح ج١٠٦/٩.

١٧) ينظر د. الدريني/ مخطوطة في الصوم ص ٥ فما بعدها.

١٨) الحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة/ كتاب الصوم/ باب هل يقول إني صائم ابن حجر/ الفتح ١١٨/٤.

١٩) ينظر الدريني/ مخطوطة في الصوم ص٣ فما بعدها.

٢٠) الحديث رواه ابن ماجة في سننه عن أبي هريرة/ كتاب الصوم/ باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم/ ج٥٣٩/١.

٢١) ينظر: أبو حيان - البحر المحيط - الآراء في إعراب: «أياما» ج ١٨١/٢.

٢٢) ينظر: الطبري - جامع البيان - ج٤١٧/٣، ابن العربي - أحكام القرآن ج٧٦/١ ابن عطية - المحرر الوجيز ج١٠٣/٢ القرطبي - الجامع لاحكام القرآن ج٢٧٦/٢ - ابن كثير - تفسير ج٢١٣/١ الآلوسي - روح المعاني ج٥٧/٢.

٢٣) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري / باب فضل الصيام في سبيل الله صحيح مسلم بشرح النووي م ٤/ج٨/ص ٢٣.

٢٤) قال ابن جماعة «معدودة» جمع كثرة و«معدودات» جمع قلة، ابن جماعة كشف المعاني في المتشابه من المثاني ص١٠٣.

٢٥) ينظر الطبري / جامع البيان ج٢٩٢/٦.

٢٦) المصدر السابق/ ج٢ ص ٢٧٤.

٢٧) د. السامرائي / التعبير القرآني ص ٣٢.

٢٨) الحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة/ كتاب الصوم/ باب إذا رأيتم الهلال، ابن حجر/ فتح الباري ج ١١٩/٤.

٢٩) الطبري / جامع البيان ج ٤١٧/٣.

٣٠) الحديث: أخرجه ابن ماجة في سننه عن أنس ابن مالك ج ١/٥٢٦.

٣١) ينظر: حاشية شيخ زادة علي البيضاوي ج٢ / ص ٤٤٧.

٣٢) ينظر: الجصاص/ أحكام القرآن ج ٢١٦/١، ابن العربي/ أحكام ج١/ ص ٧٧.

٣٣) الرازي/ مفاتيح الغيب ١١٧/٢.

٣٤) ابن العربي/ أحكام ج/١ ص ٧٨.

٣٥) الحديث: أخرجه البخاري عن عائشة/ كتاب الصورم/ باب متى تقضى كفارة رمضان/ ابن حجر ج ١٨٩/٤.

٣٦) ابن عطية/ المحرر الوجيز ج١٠٥/٢.

٣٧) شيخ زادة علي البيضاوي ج ٤٤٧/٢.

٣٨) ابن العربي/ أحكام ج ٧٩/١.

٣٩) وردت في لفظ «يطيقونه» قراءات، قراءة الجمهور بضم الياء وكسر الطاء وإسكان الياء والقراءات الأخرى شاذة لا يعول عليها لأنها لا أصل لها -ابن جني- المحتسب ١١٨/١، ابن العربي / احكام ج٧٩/١.

٤٠) ابن فارس/ معجم مقاييس اللغة ج٤٣٣/٣، الراغب/ المفردات ٣١٢، ابن منظور/ اللسان ج٢٣١/١٠.

٤١) الراغب/ المفردات ,٣١٢

٤٢) ابن منظور/ اللسان ٢٣٣/١٠.

٤٣) ابن حجر/ فتح الباري ج ١٨١/٨، مسلم بشرح النووي ج ٢٠/٨.

٤٤) الطبري / جامع البيان ج ٤٣٤/٣.

٤٥) ابو السعود / إرشاد العقل السليم ج ١٩٩/١.

٤٦) الحديث: أخرجه النسائي في سننه عن أبي أمامة م٢ / ج ١٦٥/٤.

٤٧) البقاعي / نظم الدرر ج ٥٣/٣، رضا/ المنار ج ١٥٨/٢.

٤٨) الحديث «إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا يعني مرة تسعاً وعشرين ومرة ثلاثين»، أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه / كتاب الصوم -باب قول النبي لا نكتب ولا نحسب- ابن حجر / الفتح ١٢٦/٤، مسلم بشرح النووي م ٣ ج١٩٦/٧.

٤٩) ابن عاشور / التحرير والتنوير ج١٧٢/٢.

٥٠) ينظر: الطبرسي - مجمع البيان مجلد ١ ج٢٧٦/٢.

٥١) الرازي - مفاتيح الغيب ج١٢٣/٢.

٥٢) المصدر السابق ج ١٢٥/٢.

٥٣) ينظر: رشيد رضا - المنار ج١٥٨/٢.

٥٤) المصدر السابق ج ١٦١/٢.

٥٥) ينظر: ابن عاشور - التحرير والتنوير ج١٧١/٢.

٥٦) ينظر: السمين الحلبي - الدر المصون ج٢٨١/٢.

٥٧) الرازي -مفاتيح الغيب- ج١٢٤/٢، ابن كثير - تفسير ج٢١٦/١.

٥٨) ينظر: قطب - الظلال مجلد ١ ج٧٤/٢ فما بعدها.

٥٩) ينظر: الطبري - جامع البيان ج٤٤٨/٣، الرازي - مفاتيح الغيب ج١٢٥/٢، القرطبي تفسير ج٢٩٨/١ أبو حيان - البحر المحيط ج١٩٦/٢، الألوسي مجلد ١ ج٦١/٢.

٦٠) ينظر: د. الدريني - مخطوطة في الصوم ٦ فما بعدها.

٦١) ابن حجر - فتح الباري ج٢٦٩/٤.

٦٢) أبو حيان - البحر المحيط ج١٩٦/٢.

٦٣) ابن منظور - لسان العرب ج٢٣٩/٣.

٦٤) أبو السعود - إرشاد العقل السليم ج٢٠٠/١.

٦٥) ابن عاشور - التحرير والتنوير ج١٧٤/٢.

٦٦) ينظر: المصدر السابق ج١٧٥/٢.

٦٧) الرازي - مفاتيح الغيب ج١٢٧/٢.

٦٨) المصدر السابق ج ١٢٨/٢.

٦٩) الزمخشري - الكشاف ج٣٣٧/١.

٧٠) أبو حيان - البحر المحيط ج٢٠٤/٢ فما بعدها.

٧١) ينظر: الطبري - جامع البيان ج١/٢٦٤، الألوسي - روح المعاني ج٢/٦٢.

٧٢) الحديث رواه أبو داود والترمذي عن النعمان بن بشير/ باب الدعاء ج٢/٧٧، دار إحياء التراث العربي-بيروت، الترمذي في سننه ج٥/١٢٦ سنن الترمذي ط٣-١٩٧٨، دار الفكر-بيروت.

٧٣) الحديث رواه الترمذي عن أبي هريرة / باب فضل الدعاء ج٥/١٢٥.

٧٤) المصدر السابق ج٥ ص ٢٣٦.

٧٥) القاسمي/ محاسن التأويل ج ٣/٤٣١.

٧٦) ينظر ابن عاشور / التحرير والتنوير ٢/١٧٨.

٧٧) أبو السعود / إرشاد العقل السليم ج ١/٢٠٠.

٧٨) ينظر القشيري / لطائف الإشارات ج ١/١٥٦.

٧٩) الرازي / مفاتيح الغيب ج ٢/١٢٩.

٨٠) ينظر: ابن عاشور / التحرير والتنوير ج ٢/١٧٩.

٨١) الحديث: اخرجه الترمذي عن عبد الله البدري -أبواب الدعوات- باب في انتظار الفرج ح٥/٢٢٥، ابن الأثير - جامع الأصول ج٤/١٦٦.

٨٢) الحديثان: رواهما البهيقي - شعب الإيمان ج٢/٣٨.

٨٣) ابن عاشور - التحرير والتنوير ج٢/١٧٩، قطب الظلال م١ ج٢/٧٦.

٨٤) ينظر: ابن عاشور - التحرير والتنوير ج٢/١٨٠.

٨٥) ينظر: ابن حجر - فتح الباري ج٨/١٨١ فما بعدها.

٨٦) ينظر: الزمخشري-الكشاف ج١/٣٣٨، ابن العربي-احكام ج١/٩٠، ابن عطية المحرر الوجيز ج٢/١٢٠، أبو السعود إرشاد العقل السليم ج١/٢٠٢، الألوسي-روح المعاني ج٢/٦٤.

٨٧) ابن عطية - المحرر الوجيز ج٢/١٢٠.

٨٨) الزمخشري - الكشاف ج١/٣٣٨.

٨٩) الحديث: أخرجه ابن ماجة في سننه عن أبي أمامة -باب افضل النساء- كتاب النكاح ج١/٥٩٦.

٩٠) أبو حيان - البحر المحيط ج٢/٢١٢.

٩١) ابن عاشور - التحرير والتنوير ج٢/١٨٣.

٩٢) ينظر: أبو حيان - البحر المحيط ج٢/٢١٣.

٩٣) ابن العربي - أحكام القرآن ج١/١٩٦.

٩٤) ينظر: قطب - الظلال م١ ج٢/٨٠.

٩٥) ابن عطية - المحرر الوجيز ج٢/١٢٥.

٩٦) الزمخشري - الكشاف ج١/٣٣٩، نقل هذا الرأي أبو حيان - البحر ج٢/٢١٦ شيخ زادة علي البيضاوي ج٢/٤٥٩، أبو السعود ١/٢٠٢، الألوسي ٢/٦٦.

٩٧) ينظر: حاشية شيخ زاده علي البيضاوي ج٢/٤٥٩.

٩٨) الزمخشري - الكشاف ج١/٢٠٤، ينظر: د. أبو موسى - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٨٨ فما بعدها.

٩٩) ينظر: ابن حجر - فتح الباري ج٤/١٣٢، ج٨/١٨٢.

١٠٠) ينظر: المصدر السابق ج ٤/١٣٢ فما بعدها.

١٠١) الرازي - مفاتيح الغيب ج٢/١٣٨.

١٠٢) ينظر: أبو حيان - البحر المحيط ج٢/٢٢٢، الألوسي - روح المعاني ٢/٦٩.

١٠٣) أبو حيان - البحر المحيط ج٢/٢٢٢.

١٠٤) أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير / كتاب الإيمان - باب فضل من استبرأ لدينه ابن حجر/ الفتح/١/١٢٦، مسلم بشرح النووي/ البيوع - باب أخذ الحلال وترك الحرام م٤/ج١١/٢٧.

١٠٥) ينظر: أبو حيان - البحر المحيط ج٢/٢٢٢.

المصادر والمراجع

١) ابن الاثير الجزري: الإمام مجد الدين أبو السعادات مبارك بن محمد ٦٠٦ هـ/ جامع الأصول في أحاديث الرسول/ تحقيق عبد القادر عبد القادر الأرناؤوط، ط١٣٨٩، ١٩٦٩، مطبعة الملاح ومكتبة الحلواني ودار البيان.

٢) ابن جماعة، بدر الدين، ٧٣٣هـ / كشف المعاني في المتشابه من المثاني / تحقيق د. عبد الجواد خلف، ط١، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م/ دار الوفاء / المنصورة..

٣) ابن جني، أبو الفتح عثمان: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي ناصف ورفيقه، ط ١٣٨٩، ١٩٦٩ / القاهرة.

٤) ابن حجر، الإمام الحافظ أحمد بن علي العسقلاني، ٨٥٢هـ / فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق المرحوم ابن باز / رئاسة إدارات البحوث والإفتاء والدعوة، السعودية.

٥) ابن حجر، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ٨٠٧ هـ / مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط١٤٠٢/٣هـ، ١٩٨٢م/ دار الكتاب العربي، بيروت.

٦) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس.

٧) ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله ٥٤٣هـ / أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، ط عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

٨) ابن عطية، عبد الحق غالب ٥٤٦هـ/ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق الرحالي الفاروق ورفقائه ط /١٤٠١هـ، ١٩٨١م، قطر.

٩) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ٣٩٥ هـ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون ط/١٤٠٤، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران.

١٠) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل ٧٧٤هـ/ تفسير القران العظيم/دار إحياء الكتب العربية القاهرة.

١١) ابن القيم، الإمام محمد بن أبي بكر، ابن القيم الجوزية ٧٥١ هـ بدائع الفوائد/ دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

١٢) ابن ماجه، الحافظ ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ٢٧٥هـ سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / دار الفكر / بيروت.

١٣) ابن منظور، جمال الدين محمد بن الكرم-لسان العرب، دار صادر، بيروت.

١٤) ابو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي ٧٥٤هـ / ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م البحر المحيط/ دار الفكر، بيروت.

١٥) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي ٩٥١هـ / إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم / دار احياء التراث العربي، بيروت.

١٦) الألوسي، شهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي ١٢٧٠هـ/ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ صورة، إدارة المطبعة المنيرية، بيروت.

١٧) البقاعي. برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر ٨٨٥هـ/ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ ط٢، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

١٨) البنا، أحمد عبد الرحمن، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار الشهاب، القاهرة.

١٩) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، ٤٥٨هـ/ شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول / ط ١، ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية / بيروت.

٢٠) الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، تحقيق محمد الصادق قمحاوي ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، دار احياء التراث العربي، بيروت.

٢١) الدريني، أ، د. محمد مخطوطة في الصوم/ الصوم في ضوء الهدي القرآني وبيناته.

٢٢) الرازي، الإمام فخر الدين ضياء الدين عمر ٦٠٦ هـ/ مفاتيح الغيب، ط١ ١٣٠٨هـ المطبعة الخيرية، القاهرة.

٢٣) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد ٥٠٥هـ/ المفردات في غريب القرآن تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

٢٤) رضا محمد رشيد، تفسير المنار، ط٢، دار الفكر.

٢٥) الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى ٣٨٦هـ، النكت في إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ورفيقه، ط٣، دار المعارف، القاهرة.

٢٦) زاده، محيي الدين شيخ زاده، ٩٥١هـ، حاشية على تفسير البيضاوي، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م/ دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٧) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي ٥٣٨هـ/ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط أخيرة ١٣٨٥هـ، ١٩٦٦م مصطفى البابي الحلبي القاهرة.

٢٨) السامرائي. د. فاضل صالح/ التعبير القرآني، ١٩٨٧، دار الكتب للملايين، الموصل.

٢٩) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف ٧٥٦هـ/ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق د. أحمد الخراط، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م/ دار القلم، دمشق.

٣٠) الشاطبي، إبراهيم موسى اللخمي الغرناطي ٧٩٠هـ/ الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت.

٣١) الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن ٥٤٨هـ/ مجمع البيان في تفسير القرآن ط٣ ١٣٨٣هـ، ١٩٦٦م، طهران.

٣٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ٣١٠هـ/ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق الشيخ محمود شاكر وأخيه، ط دار المعارف، القاهرة.

٣٣) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد ٥٠٥هـ/ إحياء علوم الدين، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٣٤) القاسمي، محمد جمال الدين ١٨٦٦م / محاسن التأويل، ضبط محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٩٥٧، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٣٥) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ٦٧١هـ/ الجامع لأحكام القرآن ط٢ ١٩٥٢ تصوير دار احياء التراث العربي، بيروت.

٣٦) القشيري، عبد الكريم بن هوازن ٤٦٥هـ/ لطائف الإشارات، تحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني ط٢/ ١٩٨١ الهيئة المصرية العامة، القاهرة.

٣٧) قطب، سيد/ في ظلال القرآن، ط٤، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت.

٣٨) المرادي، الحسن بن قاسم ٧٤٩هـ/ الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق د. فخر الدين قباوة ورفيقه ط١، ١٩٩٣ دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٩) النسائي، الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ٣٠٣هـ/ سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي وحاشية السندي ١٩٧٨، دار الفكر، بيروت.